

مدارس العامة، ولا يعلمهم فيها الا الخطباء. والرجل يظلم الناس ليل نهار ومن ظلم ظالماً فما ظلم. إني لأشفق من الخمر على الخاصة فان لهم عقولا تردهم أحياناً الى الاعتدال في أمرهم وانشغالاً من العيش وأسباباً من السعة تعينهم على الخمر وتقيهم كثيراً من عواقبها. ولكن أشفق منها على العامة فهي فيهم سلطان جائر يفتك ولا يرحم، وشيطان ثائر يسكن الرؤس فيملأها شراً ويتملك النفوس فيملؤها خبائث. واذا هلكت العامة فقد هلكت الخاصة. قال الهدهد: وبيننا أنا ومؤنس بحديث النسر أسمعته ولا أمله، واتعظ بجميع ما يأتى ويذر، وان لم يخاطبني في هذه المرة ولم أخاطبه، اذ قطع الحديث كعادته وتلاعب، فعملت أن الساعة أتت. ثم نظر الى وقال كلمته المأوفاً اذا جاء الليل ذهب الشياطين، فالقنى غدا في المحكمة تسمع وتره

المحادثة السادسة

قال الهدهد فلما كان اليوم التالى سئمت من النهار وطوله، ومن ينتظر يسأم، حتى إذا مال ميزانه، وأصلت الآفاق، ركبته الى منفيس، وانا أتظر أن يكون لتلك المحاكمة نبأ، ارجو أن أقف منه على درجة القضاء عند المصريين القدماء، لعلنى بأن العدل كما قيل أساس الملك ولا عدل إلا حيث القضاء يدور دياره، ويولاه أربابه وتوثق اسبابه، فهو مرآة الحكومات التى تتراءى فيها بما هى عليه من استقامة أو عوج وظلم أو عدل، وصلاح أو فساد، وارتقاء أو انحطاط. واساس الممالك اذا سلم سلمت وإذا تهدمت انهدمت، وعنوان شعور الامم وتعلقها ودرجتها في العرفان ومبالغها من الفضيلة الانسانية، لأن القوانين التى تضعها كل أمة وتتواصى بالخضوع لها، ليست الا مجموعة تاريخها وآدابها وأخلاقها وعاداتها ولأن القائمين عليها هذه القوانين ليسوا الا أفراداً من ابنائها يبصرون بعينها ويسمعون بأذانها، ويشعرون مثل شعورها ويجدون مثل وجدانها. فاذا زكوا زكا سائر الامة، واذا خبثوا، خبثت الامة جميعاً (قال) فلما احتوتنى المدينة رأيت الزمر آخذين طريقاً يتدققون فيه فقلت فى نفسى لعل الزحام من أجل بنتوور وقضيته وطفقت أطير الى حيث يسرون حتى جمعت الجوع دار لديها هالة، وعليها من العدل روث وجلالة. فقلت فى نفسى دار القضاء لا محالة. ومرقت من فورى فصرت فيها أجول مع الجائلين فى نواحيها. وهناك علمت أن هذا

البناء الرفيع مقر حاكم القسم ، وأنه يجلس فيه للقضاء بين الناس . فقد رأيت كثيراً من دور الحكومة في الاقاليم وهي التي يجلس فيها عمد البلاد واعيانها ، وحكام القرى للفصل في المنازعات ، فلم أرمحاً كي رفعة هذه الدار . فأجاني أحدهم أن قسم الصناعة اكبر اقسام المدينة يامولاي فلاغروان تكون دار الحكومة فيه بهذا العظم . لكن أياذن لي مولاي ان سأله ألم يشن الحكومة جلالة الملك أن تجعل القضاء عملاً مستقلاً ونظماً قائماً بذاته فلا يقضى بين الناس شيخ القرية ولا حاكم القسم ولا قائد العسكر ؟ قال وأى بأس بهؤلاء اذا انتدبوا للقضاء وهم أشد الناس امتزاجاً بالاهالى وأعرفهم ببطاعهم وأحوالهم وجلهم على معرفة واستقامة اخلاق . بل أن الاهالى كثيراً ما يفرعون ، بمنازعاتهم الى افراد منهم اشتهروا بالعلم والخبرة ليفصلوا بها وهم يرتاحون الى قضائهم . ويقبلون احكامهم ويمثلون الصارم منها كالجلد . وربما كانت هذه الأحكام أدنى الى العدل واقرب للصواب مما يصدره قضاة تقيمهم الحكومة ولا تنتقيهم .

ولقد رأيت الحكام في القرى اذا قصدوا للقضاء جلس بجانبهم نفر من الكتاب والاعيان ليمدوهم بالرأى ويردوهم الى الصواب فيه .

قال المهدد : فاستغربت هذه الأقوال وعجبت للدهر كيف تشابه وجهه وآخره . فهذا قضاء العمد كان من ضمن نظامات المصريين القدماء وهو اليوم الشغل الشاغل والمسألة الكبرى في مصر ، وهؤلاء المحلفون كما يؤازرون القضاة على عهد الفراعنة وهم اليوم من ضرورات القضاء في باريز مركز الحضارة الحاضرة . ثم التفت للنسرحوله وقال لاصحابه ما أجل هذا الموقف . وهناك بصرت بالنسر في ناحية يحيط به جماعة من اصدقائه وتلاميذه . فاقتربت منه فهبط مستقرى من كتفه ، فالتفت مبتسماً فقال : جعل هذا الموقف للفضيلة ينصرها فيه دعائها ، كما جعل للجرائم يفتضح فيه جناتها . والتمثلان فيه اثنان جان تعلن برامته ، وهذا يبكي عليه من في الارض ، وبرى . تعلن جنايته ، وهذا يبكي عليه من في السماء . ومن له أن اكون الثانى ؟ فقال له أحدهم قضاة منفيس يامولاي قضاة عدل ودراية ، فلا خوف على رفيع شرفك منهم .

قال لا يضطرب الا القاضى العادل ، ولا يخطئ الا القاضى العليم ولو ان لبنتوور أن يحاكم نفسه بنفسه . لحار في شأنه مع الخمار ، فلم يدر أيقضى لنفسه أم عليها . قال أحدهم هههم يامولاي حكموا لصاحب الحانة بشيء من المال يأخذه منك عوضاً لما لحق به

من الخسارة المزعومة، فما يكون شأن هذا الحكم. قال أكون قد أعطيت الفضيلة شيثام
مالى لا استكثره عليها ولا أتبعه المن. فسأله آخر ما القضاء يامولاي؟

قال محكمة ظاهرة، ألجأ إليها فساد المحكمة الباطنية. قال فما العدل؟ قال شيء كان مع
الإنسان الأول، حين لم يكن له في الأرض شريك يزاحمه، وكان لا يجد عليها من يظلمه.
قال اهدده: فبينما النسر واصحابه في التحدث إذ دعى المتقاضيان للشول في موقف
القضاء فدخل الاستاذ ونفر من الشهود له وعليه وكان القضاء نحو سبعة هم حاكم القسم
ومعاونوه من كتاب الناحية واعيانها، وكان مترديا حلة للقضاء بيضاء ضافية محلاة
الحراش، تزهو بقلائد العقيان التي كان الحكم يزينون بها صدورهم كلما جلسوا
للحكم بين الناس. فلما صار النسر بين أيديهم قال له الحاكم أيها الاستاذ إن لك بمقتضى
مناصبك السامية في المملكة أن ترغب عن قضائنا الى قضاء جلالة الملك، كما لك أن تقبل
مناقضتنا لك ام عليك، فانظر ماذا تأمر.

قال رضيت بقضائكم لأن مناصبي السامية في المملكة ليس من شأنها أن تميزني
على خصمي هذا في موقف يستوى فيه الخصوم ويقتص فيه للحصى من النجوم.
فاسمعوا له ولى، ثم اقضوا ما أتم قاضون، قال إنه يقول أنك أذريت به وبجارتته وأنه
لا بد له من بدل ويطلب من المحكمة أن تحكم له بما يأخذه منك، وقد جاء بشهود من عنده للاثبات
فهل جئت بشهود من عندك للنفي؟ قال ليس لي شهود من عندي أيها القاضى وما خطر لي قط على بال
أن الشهادة تتجزأ، لأنه لا فضيلة ولا عبادة حيث يختلف اثنان في شهادة. وإنى لأعجب
لكم معشر الحكماء كيف تقبلون من شاهد أن يثبت ومن آخر أن ينفى، وأنتم تعلمون
أن أحدهما كاذب أو محرف للشهادة لا محالة، وقبول الكذب اغراء به.

أن الشاهد دعامة القضاء، اذا متنت متن، واذا وهنت وهن. فقوموه تقوموا به.
لو أن من الآلهة قضاة في الارض، ومن الملائكة متقاضين، وفسد الشاهد لفسدوا
جميعا. الشاهد عنوان الامة فاجعلوا عنوانها الصدق والفضيلة، لا المين والرديلة.
ان شاهدين يقول أحدهما رأيت نهراً فيقول الآخر رأيت ليلاً، ويقول الاول سمعت
ضحكا، فيقول الآخر سمعت بكاء، لمن حقهما ان يفصل بينهما قبل أن يفصل بين
المتقاضيين فمن كذب منهما يسلب السمع والابصار، وينادى عليه في الناس بالفضيحة
والعار. قال الحاكم إن مقام هذا المقال المدرسة، لا المحكمة أيها الاستاذ. ولا بد لنا ان

نسمع الشهود، فليخرجوا وليبق واحد، فخرجوا الا واحدا فطلب القاضى منه أن يؤدى اليمين القانونية . وهى عند المصريين القدماء اقسام بحياة الملك وبنعمة الآلهة . فأداها ثم قص على المحكمة ما رأى وما سمع وحدث القضاة حديث الخطبة وأعاد عليهم منها حتى فرغ من الشهادة فذهب لشأنه وجىء بغيره فأداها ثم شهد ثالث ورابع وخامس فرأيت الكل على خلق واحد من توخى الصدق والتوجه الى الحقيقة والابحاز فى العبارة . فغبطت قضاة الفراعنة بهم وبسائر الامة، أمة الاخلاق ورثت فى نفسى لقضائنا علما بما يكابدون من جهل الشهود وروغانهم من الحقيقة وخطبهم فى المقالة بما يخرج القاضى أحيانا من سكنته ويشتت خواطره ويذهب بشمين وقته سدى . ثم طلب القاضى من صاحب الحانة أن يشرح دعواه ، فتقدم رجل أسمر اللون ، صغير الهامة ، رقيق العنق قبيح الوجه ، فسأله الحاكم من أنت قال فلان الكاتب يامولاي ، أنا بنى صاحب الحانة عنه فى تقرير شكواه ، وشرح دعواه . قال إذن تكلم فاقسم الرجل ثم شرح يقول :

«دخل السيد الاستاذ بنتور صديق ملك العالم حاتنا التى بشارع الصناعة يصحبه فتیان فلبث فيها ريثما شرب قدحاً من نبيذ منفيس ، ثم خرج فلم ندر به الاوقد وقف بباب الحانة فمنعه ، واعترض للناس فى طريقهم اليها فقطعه ، وخطب فى المارة بعد ذلك فاستوقفهم ، وجلب الزحام بعضه بعضا حتى خيل للرائى أن الحانة قتل فيها قتيل ، أو حدث فيها حادث جليل ، وكانت الخمر موضوع خطبته أولها وآخرها ، فوصفها بأقبح الأوصاف ، ونهى عن شربها وحذر من عواقبها وذكر مضارها وبين نصيب كل طبقة من طبقات الامة منها ، وطالت خطبته هذه حتى سمعها خلق كثير ، ومن فاته أولها لم يفته آخرها . ويعلم القضاة من جهة أن تجارة الاهليين حرة فى بلاد جلالة الملك ، وأن قوانين جلالته لا تحرم الخمر ولا تمنع من المتاجرة بها : ويعلمون من جهة ثانية أن للخطابة مواقف لم يكن ذلك الموقف منها . فلو قال الاستاذ فى الخمر ما قال وهو فى المتعبد بالهيكل أو فى التعليم بالمدرسة ، لما وجد لائماً ولا مؤاخذا لكنه عمد لشخص معين فأزرى به وبتجارته بمرأى ومسمع من الكافة ، ويعلمون كذلك أن آلاف الحانات بين اثناس هم العامة فى الغالب ، وهؤلاء يتأثرون بذكر اسم الاستاذ بنتور ، فكيف اذا سمعوا حديثه وكان مداره ذم الخمر فى بيتها ، وتقبيح تجارتها بين أعين تجارها ، ويعلمون

أيضا أن المارة في أى قسم من اقسام المدينة انما يكون معظمهم من أهله و سكانه ،
وحاتنا انما جعلت لابناء تلك الناحية التى خطب الاستاذ عليها ، فكل ضرر ينشأ
عن خطبته انما يلحق بالحانة ويصيب صاحبها بالذات. هذه شكوانا بسطانها للحاكم
واعوانه آملين من عدالتهم أن يقدرُوا الخسارة التى سببها الاستاذ لنا بخطبته ، وأن
يسوموه أداء العوض البناء فحين فرغ الرجل من شرح الشكوى لم يتألم لك بتقوّر أن
ضحك ثم قال

أيها القضاة اعطوا الخمار من مالى ماشتم ، ولا تعطوا هذا الاحق منه فتبلا . فسأله
الحاكم وأى علاقة بينكما وليس هو الا محاميا عن صاحب الحانة ؟

قال علت انهما اشترط أن يكون له النصف مما تحكمون به على ، وأن الخمار عارضه في ذلك
بادىء بده ، فكان جوابه أن التجارين سواء . فكما أن الخمار يسلب الناس أموالهم
كذلك المحامى يشاطرهم أرزاقهم . زعم الخصم أن قوانين جلالة الملك لا تحرم الخمر ولا تمنع
من المتاجرة بها ونحن نقول أنها تبيح السم أيضا ولا تحظر الاتجار به ، مادام من العقاقير ،
وكل ما أخذ بمقادير . على أننا لم نحرم الخمر ولم ننه عنها ، وكيف وقد شربنا منها
قدحا باعتراف الخصم . لكن دعونا الناس الى الاعتدال فى امرهم وأخذ القليل منها ،
إذا لم يكن من شربها بده . فمثلنا كمن يقول لهم وهو على باب صيدلية لاحانة : يا أيها
الناس لا تأخذوا السم إلا بمقدار ، فهل علينا ان قلنا هذا من حرج ؟ شتان بين النوعين
من السم : هذا يأخذه المرء وهو يعافه . وهذا يتناوله وهو يلذه . هذا يتجرعه وهو
يدرى ، وهذا يتعاطاه وهو لا يدري . هذا إذا أخذ قليله نفع ، وإذا أخذ كثيره أراح .
وهذا صمة تزول . وشعور يعتور ذبول . وعلة تطول . وميتة عذابها يهول .

وزعم الخصم أن للخطابة مواقف لم يكن ذلك الموقف منها . ونحن نقول ان الموقف
لم يكن أصلح منه للخطابة لأن قدحا من الخمر لا يرثى له إلا فى الحانة ، كما أن الميت لا
يؤبن إلا فى القبر . وزعم الخصم أن خطبتنا من شأنها أن تؤثر فى العامة الذين هم
المشاؤون إلى الحانات ، وهذا ما كنا نبغى . فأنا نلتقى بالخاصة فى المجالس ، ونكتب لهم
ما تصل اليه ايديهم وافهامهم . لكن لا يجمعنا والعامة الا الطريق ، ونصحهم دين علينا
أيها لقينا هم . وزعم الخصم أن البلاء مقصور على حاتته ، لأنها انما جعلت لابناء الناحية

التي حاربنا فيها الخمر ، فأصبح ينتظر في سكانها ان يولوا الوجوه عنها ، وهذا يسوؤنا
بقدر ما يحزن صاحب الحانة فقد ودنا لو عم النفع ، بقدر ما خص الضر .

أيها القضاة لا تحكموا للخمر فتحكموا على الفضيلة ، ولا تقضوا له فتقضوا على
التجارة الشريفة . لأن المتاجر بالخمر قاسى القلب لا يرحم صرعا ، اغدار لا يشيع جنازة قتلاه ،
غشاش لا يقف في الغش عند حد . شره لا يقصر في الكسب عند غاية . فإذا لم يكن
منكم رقيب عليه ، ولم يضرب القضاء على يديه ، عظم شره ، وعم ضره ، وتشبه به
الكثيرون من اهل الكسل والشره ، ثم تعلق القاضى بهذا الحكم

ونحن حاكم قسم الصناعة من أسباب حكمنا الذى نصدره باسم جلالة الملك مقتبسين
من أنوار عدله المشرقة على العالم أن الينيات موازية الاعمال ، لا غنى للقضاء عن تقديرها ،
والتأمل فيها ، والوقوف حيث هى من صلاح أو فساد فى الحكم على صلاح الاعمال
أو فسادها . ونية الاستاذ بنتو وريوم خطب فى شارع الصناعة كانت مقصورة على أن
ينفع الناس ولا يضر بصاحب الحانة . وأيضا أن الفضيلة هى روح الشرائع التى يحكم
بها جلالة الملك رعاياه ، فلا ينبغى لها أن تنصر عليها الرذيلة فى حال من الاحوال .
والاستاذ بنتو رانما نهى عن الاكثار من الخمر وادمانها الذى هو رأس الرذيلة . ونرى
لذلك الاستاذ بنتو وهو من كبار أساتذة الأمة ، واهل الارشاد فيها . وهذه الوظيفة
العالية يؤديها امثاله الحكماء فى كل زمان ومكان أينما وجدوا وكيف ارتأوا ، وكل
مرض لهم فيها تعرض للفضيلة . وبناء على ذلك حكمنا بىطلان دعوى الخمار وان يدفع
الى الاستاذ بنتو وعشرين قطعة من الذهب لأنه سلبه بعض وقته الثمين وأخره عن
اشغاله النافعة فى دعوى لم يكن من شأنها ان ترفع الى القضاء . ولهذا السبب نفسه حكمنا
على الكاتب ، فلان ، المحامى عن الخمار بخمسين جلدة يجلدها فى صحن دار الحكومة
هذه بمشهد من الناس عقوبة له على غشه صاحبه ولكيلا يجترى أمثاله الكتاب على
أخذ أموال الناس بغير الحق . قال الهدهد ثم ثأب بالنسر ثأوبه المعهود وفاه بكلمته المألوفة :
اذ جاء الليل ذهب الشياطين ، وامرني ان القاه غدا ذلك اليوم فى دار الأمير (أوفى)

شهر التمساح



امام حنيفة ٢٣٧

» جامعات الجزائر «